بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكافرون مكية

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾.

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أنّ رهطًا من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. فقال: معاذ الله أن أشرك بالله غيره. فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت. فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤسهم فقرأها عليهم فأيسوا.

لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾.

﴿لا أعبد﴾ أريدت به العبادة فيما يستقبل لأنّ لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، الا ترى أنّ لن تأكيد فيما تنفيه لا. وقال الخليل في لن أصله لا أنْ. والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم، ولا انتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي.

وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾.

﴿ولا انا عابد ما عبدتم﴾ أي: وما كنت قط عابدًا فيما سلف[1] ما عبدتم فيه. يعني: لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية، فكيف ترجى مني في الإسلام.

وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾.

﴿ولا انتم عابدون ما أعبد﴾ أي: وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل: ما عبدت، كما قيل: ما عبدتم؟ **قُلْتُ:** لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت.

فإن قُلْتَ: فلم جاء على ما دون من؟ **قُلْتُ:** لأنّ المراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. وقيل: أن ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي.

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾.

﴿لكم دينكم ولي دين﴾ لكم شرككم ولي توحيدي. والمعنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافًا ولا تدعوني إلى الشرك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين وبرئ من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النصر مدنية

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾.

﴿إذا﴾ منصوب يسبح، وهو لما يستقبل، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوّة. روي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ **قُلْتُ:** النصر الإغاثة والإظهار على العدوّ، ومنه نصر الله الأرض غاثها. والفتح فتح البلاد، والمعنى: نصر رسول الله ﷺ على العرب أو على قريش وفتح مكة. وقيل: جنس نصر الله للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم. وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوزان وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. ثم قال: يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فأعتقهم رسول الله ﷺ[3]. وقد كان الله تعالى أمكنه من رقابهم عنوةً وكانوا له فيأ فلذلك سمى أهل مكة

---

(1) قال أحمد: هذا الذي قاله خطأ على الأصل والفرع جميعاً، إما على أصله القدري، فإنه وإن كان مقتضاه أنّ النبي ﷺ لم يكن قبل البعث على دين نبي قبله، لاعتقاد القدرية أن ذلك غميزة في منصبه ومنفر من اتباعه، فيستحيل وقوعه للمفسدة، إلا أنهم يعتقدون أنّ الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيده ومعرفته، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع، فتلك عبادة قبل البعث يلزمهم أن لا يظنوا به ﷺ الإخلال بها، فحينئذ يقتضي أصلهم أنه كان قبل البعث يعبد الله تعالى، فالزمخشري حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق، فأخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل، والحق أنّ النبي ﷺ كان يعبد قبل الوحي ويتحنث = في غار حراء، فإن كان مجيء قوله: أعبد؛ لأنّ الماضي لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية، فيحمل الأمر فيها والله أعلم على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي، لا على مجرّد توحيد الله تعالى ومعرفته، فإنّ ذلك لم يزل ثابتاً له ﷺ قبل البعث، والله أعلم، أو يكون مجيئه مضارعاً لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه، كقوله: ﴿ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ والأصل: فأصبحت، وإنما عدل عنه للمعنى المذكور وهو وجه حسن فتأمله، والله أعلم.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الفتح في رمضان (الحديث رقم: 4275).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند (الحديث رقم: 3/343).

الطلقاء. ثم بايعوه على الإسلام.

وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾.

﴿في دين الله﴾ في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها، ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه. ﴿أفواجًا﴾ جماعاتٍ كثيفةً كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدًا واحدًا واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه بكى ذات يوم، فقيل له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجًا وسيخرجون منه أفواجًا»[1]. وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة: لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، جاء نصر الله والفتح، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية»[2]. وقال: «أجد نفير ربكم من قبل اليمن»[3]. وعن الحسن: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان. وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجًا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الله والنصر، وقرئ: يدخلون على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: ما محل يدخلون؟ **قُلْتُ:** النصب إما على الحال على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت، أو هو مفعول ثانٍ على أنه بمعنى علمت.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾.

﴿فسبح بحمد ربك﴾ فقل سبحان الله حامدًا له، أي: فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده على صنعه، أو فاذكره مسبحًا حامدًا زيادةً على عبادته والثناء عليه لزيادة أنعامه عليك، أو فصلِّ له. روت أم هانئ أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات، وعن عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك»[4]. والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفًا لأمته، ولأنّ الاستغفار من التواضع لله وهضم النفس فهو عبادة في نفسه. وعن النبي ﷺ: «إني لاستغفر في اليوم والليلة مائة مرة»[5]. وروي أنه لما قرأها رسول الله ﷺ على أصحابه استبشروا، وبكى العباس، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: نعيت إليك نفسك. قال: «إنها لكما» تقول، فعاش بعدها سنتين لم ير فيهما ضاحكًا مستبشرًا. وقيل: إن ابن عباس هو الذي قال ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»[6]. وروي أنها لما نزلت خطب رسول الله ﷺ فقال: إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله. فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال: فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا[7]. وعن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهما كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر فقال عبد الرحمن: أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله. فقال: إنه ممن قد علمتم. قال ابن عباس: فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله﴾[8] ولا أراه سألهم إلا من أجلي. فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه. فقلت: ليس كذلك، ولكن نعيت إليه نفسه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم. ثم قال: كيف تلوموني عليه بعد ما ترون[9]. وعن النبي ﷺ أنه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه إنه نعيت إليّ نفسي». فبكت. فقال: «لا تبكي فإنك أوّل أهلي لحوقًا بي»[10]. وعن ابن مسعود: أنّ هذه السورة تسمى سورة التوديع ﴿كان توابًا﴾ أي: كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين توابًا عليهم إذا استغفروا، فعلى كل مستغفر أن يتوقع مثل ذلك. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إذا جاء نصر الله أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة»[11].

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تفاضل أهل الإيمان فيه (الحديث رقم: 82/52).

(2) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص 583.

(3) قال ابن حجر: لم أجده هكذا، فإن ظاهره يوهم أنه صلاها داخل الكعبة، وفي الصحيح ما أخرجه في كتاب: المغازي، باب: منزل النبي ﷺ يوم الفتح (الحديث رقم: 4292)، ورواه أبو داود بنحو آخر في كتاب: الصلاة، باب: صلاة الضحى (الحديث رقم: 1290).

(4) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود (الحديث رقم: 817)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (الحديث رقم: 217/484).

(5) أخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه (الحديث رقم: 41/2702).

(6) أخرجه الثعلبي في تفسيره زيلعي 4/319.

(7) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ (الحديث رقم: 3904)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضائل أبي بكر رضي الله عنه (الحديث: 2/2382).

(8) سورة النصر، الآية: 1.

(9) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب: التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾ (الحديث رقم: 4970).

(10) أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل، وابن مردويه في تفسيره، زيلعي 4/322، وله شاهد عند البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة (الحديث رقم: 3623).

(11) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم زيلعي: 4/324.